

الصهيونية ايدولوجية عنصرية

تعريف بالمصطلحات الاساسية

انار القرار الذي أصدرته الجمعية العامة للأمم المتحدة الخاص باعتبار الصهيونية صورة من صور العنصرية ردود افعال واسعة المدى. والحقيقة ان هذا القرار يؤكد اهمية تأصيل دراسة الظاهرة الصهيونية التي قامت على اساسها عملية الاستيطان الاستعماري في فلسطين . وتتركز دراستنا على الصهيونية باعتبارها ايدولوجية عنصرية ، ويقتضي ذلك منذ البداية تحديدا لما نعنيه بالايديولوجية والعنصرية .

١ - الايدولوجية :

ويمكن لنا ان نقرر ان مفهوم الايدولوجية من المفاهيم النسبي تمدت الاتجاهات بصدد تعريفها (٢) . غير انه يمكن - اذا ما تبينا وجهة نظر آدم شاف - (٣) ان نقسم التعريفات التي اعطيت للايدولوجية - بوجه عام - الى ثلاث فئات : التعريفات التكوينية ، والمعرفيات البنائية ، والتعريفات الوظيفية .

- والتعريف التكويني Genetique للايدولوجية ينطلق من الظروف التي انبثقت او صاحبت نشأتها .

- اما التعريف البنائي Structurale للايدولوجية فهو ينطلق من السمات التي تميز - من وجهة النظر المنطقية او من وجهة نظر المعرفة - الاحكام والقضايا التي تكون الايدولوجية عن غيرها من الايدولوجيات من ناحية ، او من غيرها من الابنية الفكرية الاخرى كالتنظيرات العلمية من ناحية اخرى .

واخيرا فالتعريف الوظيفي Fonctionnele

للايدولوجية يركز على ويشير الى الوظائف التي تقوم بها الايدولوجية في مواجهة المجتمع والجماعات الاجتماعية والافراد .

وقد عمد آدم شاف الى تبني التعريف الوظيفي للايدولوجية ، وذلك لانه يرى انه اكثر تعريفات الايدولوجية وصفية وحيادا ، وهو بذلك يمكن ان يكون اكثر التعريفات قبولا لدى وجهات النظر المختلفة . وهي هذا الصوء يقترح آدم شاف التعريف التالي :

« الايدولوجية هي نسق من الافكار يقوم - في ارتكازه على نسق محدد من القيم - بتحديد اتجاهات الناس وسلوكهم ازاء الاغراض المتنبئة المتعلقة بتطور المجتمع ، او الجماعات الاجتماعية او الافراد » .

وبالرغم من ان هذا التعريف الوظيفي يمكن قبوله بوجه عام ، لانه ينطبق على الصهيونية كما ينطبق على غيرها من الايدولوجيات الا ان استبعاد آدم شاف للتعريفات التكوينية والتعريفات البنائية مسألة غير مقبولة . ذلك انه لا يكفي ان نشير الى الوظيفة او الوظائف التي

تقوم بها الايدولوجية ، ولكن ينبغي - اذا ما كنا في سياق ودراسة نقدية - ان نحدد الاصول التكوينية للايدولوجية محل الدراسة ، وكذلك ان نبرز العناصر الاساسية الفكرية المكونة لها . وينطبق هذا على وجه الخصوص على الصهيونية ، فلا يمكن لنا ان نفهم الوظائف التي تقوم بها بالنسبة لجماعات الصهيونيين ، بغير ان نحدد اصولها وينهاها الداخلي .

٢ - العنصرية :

تقوم العنصرية على فكرة رئيسية مؤداها ان مجموعة محددة من البشر يتسمون بكونهم طبيعيا اسمى من غيرهم (٤) . وعادة ما يتسم توصيف السمات المميزة للجماعة المختارة سواء على اساس فيزيقي يتعلق بالتكوين الجسمي ، او على اساس حضاري خالص يتعلق بايراز السمات الثقافية التي تميز الجماعة المختارة . وهناك ايضا عدد كبير من السمات والقيم عادة ما ينظر اليها باعتبارها علامات على السمو والامتياز مثل العبقرية العسكرية والتفوق التكنولوجي ، او كما يقرر الصهاينة انهم اسمى الجماعات الانسانية لانهم شعب الله المختار . وايا كان الجنس الذي تزعم الايدولوجيات العنصرية تفوقه وسموه ، فان العنصري عادة ما يؤكد ان جماعته التي يحاول اعلاء شأنها سامية من وجهة النظر البيولوجية ، ومن ثم فان هذا السمو - ما دام يرسد الى اصل بيولوجي - سيستمر الى الابد . ومن أبرز المناهبات العنصرية في العصر الحديث ، الايدولوجية النازية ، التي كانت لها رؤية تسعى لتحقيق سلام « يؤسس بواسطة السيف المنتصر لشعب مكون من السادة ، سيضع العالم في خيمة حضارة ارفي » (٥) . ومن ناحية اخرى اقامت اليابان قبل هزيمتها في الحرب العالمية الثانية قوميتها المتطرفة وسياستها التوسعية على اسطورة قومية عنصرية . واذا انتقلنا الى افريقيا نجد ان العنصرية تتمثل في محاولة اقامة فجوات لا يمكن سدّها بين البيض المستعمرين والسود اهالي البلاد الاصليين . وقد تحدثت سارة ميللين في العشرينات عن جنوب افريقيا مقررّة ان « الفجوة بين الاسود والايبيس بالغة الاتساع بحيث لا يمكن سدّها » (٦) ونفس هذا الحكم نجده - بصيغة اخرى - لدى غلاة المفكرين الصهيونيين حين يقررون ان هناك فروقا اساسية بين اليهود من ناحية وبين «الافيار» من ناحية اخرى ، ومن هنا السمة النفسية السائدة لدى اليهود وهي الشك في كل من هو غير يهودي .

ولقد استخدمت العنصرية لتبرير اوضاع اقتصادية وسياسية واجتماعية بالغة التنوع . واذا استقرنا التاريخ الاستعماري الاميركي هي سنواته الباكرة - على سبيل المثال - فلنجد ان المجتمع الاميركي الذي كانت تسوده نزعات دينية قوية في هذا الوقت ، كان لا بد له

السحق الروحي والحضاري - السليبي سيرتوب على خنق حياتهم التقليدية والمجتمعية تحت وطأة التنظيمات الاقتصادية والسياسية الحديثة - والفناء المادي عن طريق « الانعماج التام » في المجتمع . ومن هنا زعمت الصهيونية انه في فلسطين فقط يمكن ان ينشأ مجتمع يهودي حديث ، حيث يمكن التآلف بين اليهودية والحضارة الانسانية العامة - او بمباراة اخرى - بين الاصله والمعاصرة ، وتبني المجتمع اليهودي في فلسطين ايدولوجية متكاملة بمعنى انه صاغ نسفا محددا من الافكار المترابطة فيما بينها بطريقة عضوية وجعلها دليلا للعميل وتقينا للسلوك ، وقد انطلق من ايدولوجية « الريادة » نسبة « للرواد » الذين هم في الحقيفة طلائع المستعمرين الاوائل الذين هبطوا الى ارض فلسطين ليكفونوا مفسمة الاستعمار الاستيطاني لفلسطين . وحاولت الصهيونية ان تبني نموذجاً مثاليا « للرائد » اندي صور باعتبارها اليهودي الامثل ، ومن هنا ألح الفادة الصهيونيون الاوائل على ضرورة ان يطابق المستوطنون انفسهم وانجاسهم وسلوكهم مع السمات التي يتميز بها واهمها النضحية . فالرائد هو الشخص الذي على استعداد لحرمان نفسه من متع الحياة والفوائد المادية ، وهو يسادر الى ان يطوع أسلوب حياته ليعيش عيشة مقشفة . ولم يكن هذا التشف مقصودا لذاته - بالرغم من انه أصبح بعد ذلك اتجاها سائدا - ولكن بفرض القيام بالاعباء الجسيمة التي حددتها لنفسها جماعات الرواد لخلق المجتمع اليهودي في فلسطين .

اما السمة الثانية للرائد فهي ان يمارس العدل بنفسه ، مع تحريم العمل المستغل . وقد حدد هذا الاتجاه طيعة الانشطة التي وجهت لخلق المجتمع اليهودي في فلسطين ، ونقصد التركيز الشديد على العمل غير المستغل في الميدان الزراعي واليدوي باعتباره وسيلة رئيسية لبعث شباب « الامة اليهودية » ولخلق انسان يهودي جديد . وقد ركزت ايدولوجية « الريادة » على فكريتين اساسيتين هما : ضرورة الاعتماد على الاكتفاء الذاتي ، واهمية تنمية وسائل الدفاع

والحقيقة ان ايدولوجية الريادة التي كانت الوجه الرئيسي - بما تضمنته من مبادئ وقيم واستراتيجيات - لجماعات المستعمرين الصهيونيين الاوائل في فلسطين ، لتكشف لو حللناها بدقة عن جلور الفكر النصرى الذي صدرت عنه الصهيونية .

ويتمثل ذلك اساسا في المهام التي ادعتها الصهيونية لنفسها وهي بصدد خلقها للمجتمع اليهودي في فلسطين ، وفي نظرة الصهيونيين الى العرب الفلسطينيين اهل البلاد الاصليين ، واخيرا في السياسات الاستيطانية التي كان أبرزها اقتحام الارض والعمل والحراسة والانتاج .

1 - لقد زعمت الصهيونية أولا انها ستنهض في فلسطين بمباء « رسالة حضارية » تتمثل في تمدين وتحضير فلسطين . وهذه الدعوة تطابق تماما مع الفكر النصرى الراسمالي الاوروبى في القرن التاسع عشر الذي صاغ هذه الفكرة لكي تكون تبريرا ثقافيا « لاستعمار الشعوب المتخلفة » واستقلالها من قبل الراسمالية الاوروبية تحت شعار « اعدادها » و « تمدينها » لتصبح في مستوى يسمح لها بان تحكم نفسها . ويشهد على ذلك ما قرره الفكر الصهيوني موسى هس من ان رسالة الامة اليهودية ودولتها في فلسطين هي حماية « نقطة التقاطع والاتقاء بين القارات الثلاث » . وبصف هذه الرسالة بقوله : « وسيصيد راسمالمك الحياة للارض القاحلة وسيحول عملكم وجهدمك ، مرة اخرى ، التربة القديمة الى وديان مشربة بعد ان نقلوا الارض من يران رمال الصحراء الممتدة . بعد ذلك سوف يقدم لكم العالم من جديد آيات الولاء والاحترام » .

ويؤكد هرتزل على الفكرة ذاتها فيقرر :

« وسنكون هناك جزوا من الحاجز الذي يحمي أوروبا في آسيا ،

ان يبحث عن تبرير لنظام المبودية الذي فرضه على الزوج ، وخصوصا بعد تحولهم الى المسيحية ، فالدين المسيحي لا يسمح لمسيحي بان يمتلك ويستمد مسيحيا آخر ، وكانت النصرية هي المخرج ، على اساس ان الزوج جنس اثنى مرتبة من البيض مما يبرر استيادهم ، وذلك - كما قرر جيرريخان بصراحة بحسد عليها - ان الملكية هي الملكية ، وهي لذلك تحتاج لحماية الى حجج وجيهة .

ومن ناحية اخرى اغرق النصرىون الالمان في اسباغ الصفسات الرديئة على اليابانيين ، وكثيرا ما تحدثوا عن « الخطر الاصفر » ، وكانوا ينعنون اليابانيين بانهم « فردة مربوبون » ، غير انه لما استندت التطورات السياسية ضرورة ضم اليابان الى دول المحور انبرى « علماء الاجناس » الالمان يتحدثون عن اليابانيين بكونهم - في نهاية الامر - ينتمون الى الجنس الآري .

والواقع ان الفكر النصرى الحديث يستمد اصوله من كتابات الكاتب الفرنسى دي جوينو الذي نشر بين عامي 1852 - 1855 كتابا شهيرا عنوانه « دراسة في عدم تساوي الاجناس البشرية » (V) . وقد ضمن جوينو هذا الكتاب نظريته النصرية الكاملة ، التي هي بمثابة تفسير نصرى للتاريخ الانساني . ففي وجهة نظره ، اذا ما اردنا ان نبعث اسباب صعود وانهار المجتمعات والحضارات الانسانية ، نبعثا نجدها في الاسباب الاقتصادية او السياسية او الدينية او الاجتماعية . ذلك ان الاسباب الحقيقية ترد للعامل النصرى . ومن ناحية اخرى ، فقد زعم جوينو ان الاجناس الانسانية يمكن تصنيفها الى اجناس ممتازة واجناس منخطة . والاجناس الاولى قادرة على التقدم ، اما الاجناس الثانية فمحكوم عليها بالتخلف الابدي .

وقد سار على خطى جوينو عدد آخر من الكتاب والباحثين ، من أبرزهم تشامبرلين في كتابه « اساس القرن التاسع عشر » وكذلك عالم الانثروبولوجيا الفرنسى فاشي دي لابوج وعالم الانثروبولوجيا الالمانى اوتو ابون (A) .

واذا كانت النصرية الحديثة قد ولدت على ايدي جوينو في القرن التاسع عشر ، فلم يكن ذلك في الحقيقة مجرد صدفة . ذلك ان علم اجتماع المعرفة قد علمنا ان الافكار لا تنشأ وتطور وتغير في فراغ ، وانما لا بد من ربطها بالحلظة التاريخية وبنوعية البناء الاجتماعي السائد في المجتمع . واذا طبقنا هذا المنهج ، اكتشفنا ان صعود نجم الفكر النصرى ، قد صاحب نشوء واتساع النظام الامبريالي العالمي الذي قام على استعمار ونهب شعوب العالم الثالث . وكان لا بد له حتى ينجز مهمته ان يجد المرر لذلك ، وهكذا ظهرت دعاوى « عبء الرجل الابيض » في تمدين الشعوب المتخلفة وغيرها من الصيغ النصرية التي قصد بها ايجاد السند الفكري للعملية الاستعمارية .

من هنا نكتشف الصلة الوثيقة بين النصرية والاستعمار ، ولذلك ليس غريبا ان نجد الصهيونية باعتبارها ايدولوجية نصرية ، هي الحركة السياسية التي قام على اساسها الاستعمار الاستيطاني في فلسطين .

الصهيونية وبناء المجتمع الاسرائيلي النصرى

اولا : بناء المجتمع اليهودي في فلسطين :

نشأ المجتمع اليهودي في فلسطين وتبلور نتيجة لجهود الجماعات الصهيونية التي ظهرت في أوروبا الشرقية والوسطى ، وذلك في اواخر القرن التاسع عشر . وقد رفعت هذه الجماعات الصهيونية شعارا مؤداه « انه لا يمكن ممارسة حياة يهودية صحيحة في أي مجتمع حديث خارج فلسطين » . وزعمت الصهيونية ان الحياة في فلسطين المجتمعات الاوروبية الحديثة من شأنها ان تجعل اليهود يتمزقون بسن

ب - اقتحام العمل :

استعمار الاسيطاني الصهيوني في فلسطين ليس استعمارا استيطانيا فحسب ، ولكنه أيضا استعمار احتلالي ، بمعنى انه كان يطمح - لتحقيق حلم الدولة اليهودية اتقنية - الى احتلال اليهود محل العرب الفلسطينيين . وبدت لم يكن ناقيا اقتحام الارض ، بل انه ذهب - الى ابعد من ذلك - في سبيل اقتحام العمل . ويجسد تنا ايضا ان مبدأ اقتحام العمل ، الذي كان في حقيقته توجه الاقصائي العنصري للاستعمار الاستيطاني الصهيوني ، سوف يفلت ايدولوجي ، ليهب بنسب سببا . وخصرنا الفكر الصهيوني غوردون الى ان المدس يهودي يبني ان يعمل من اجل العمل ذاته . وان اقتحام العمل وخصوصا الزراعة والاعمال اليدوية من سنة ان يوق صلته اليهودي بالارض وانطيمه ، هذه الصلة التي حرم منها السنين الطول . نتيجة للوظائف الطفيلية التي اجبر على ان يمارسها في السنوات .

بينما عن نل سده افكار المجردة عن العمل العبري وطمساره وضرورته ليمت شخصية اليهودي من جديد ، فقد تشف مبدأ اقتحام العمل عن نفسه ، باعتبارها مبدأ عصبيا ترتب عليه انقراض اليهود على انفسهم من ناحية ، وحجب العمل عن العمال العرب ، فسي محاولة القضاء عليهم في سوق العمل .

ج - اقتحام الحراسه .

يعتبر هذا المبدأ الترجمة العملية لشعار الدفاع الذاتي في ايدولوجية الريادة أو بصارة أخرى ايدولوجية المستعمرين الصهيونيين الاوائل . فاقحام الارض واقتحام العمل ، معناه انتزاع الاراضي العربية من اصحابها ، واضعافهم اقتصاديا في سوق العمل تحت شعار اسس العبري ، ويعني ذلك انه احتمل تصاعد مقاومة عربية ضد السياسات اليهودية ، ومن ها انباء هذا المبدأ ، الذي مضاه عم الاعتماد على العرب في حراسه المسوؤنات أو المشاريع الصهيونية وضرورة تشكيل فرق صهيونية للقيام بهذه الوظيفة الحيوية .

د - اقتحام الانتاج :

وحتى تكتمل الدورة التي تبدأ باقتحام الارض والعمل والحراسة تأتي أخيرا لمبدأ اقتحام الانتاج . ومعناه ببساطة مقاطعة المنتجات العربية ومنع التعامل مع العرب ، والتعامل مع اليهود وحدهم . وقد قام المستعمرات بدور واضح في فرض العمل العبري ، وفي فرض مبدأ شراء الانتاج اليهودي ومقاطعة الانتاج العربي .

ثانيا : العنصرية في المجتمع الإسرائيلي
بعد قيام الدولة عام ١٩٤٨ :

لمبت العنصرية في المرحلة الاولى من الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في فلسطين دورا بارزا في بناء المجتمع اليهودي . وهذا الدور ركز في المقام الاول على تثبيت هوية المستعمرين الاوائل القادمين ودعوتها - باستخدام شعارات شتى - ازاء هوية العرب الفلسطينيين . ويمكن القول ان اجيال المستوطنين الاوائل قد نجحوا في اقامة المجتمع اليهودي في فلسطين نتيجة ظروف تاريخية شتى ، لعل من اهمها تدعيم الاستعمار العالمي ممثلا في القوى الكبرى وخصوصا بريطانيا العظمى . ومساعدات الراسمالية الاوروبية اليهودية وعدم قدرة العرب في هذه المرحلة على المقاومة الفعالة المنظمة ، فقد كانت للدول العربية جميعا تقريبا واقعة تحت السيطرة الاجنبية . وقد ترجم نجاح هذه الجماعات الاستيطانية عن نفسه في انها

ستكون مخفرا اماميا للحضارة في وجه الهمجية . يتوجب علينا لدولة محامية ، ان تبقى على اتصال مع كل اوربا التي سيكون عليها ضمان وجودنا» .

ويزيد مانس بوردو الفكرة وضوحا ليقرر :

« سوف نبذل وسعنا لكي نعمل في الشرق الاذن ما عمله الاندلس في الهند ، اعني يدك : النساط الثقافي وليس السيطرة . نحن نتوي انساب ابي فلسطين بمشابة الحملة المعمدين للمدنية والمخضر ، ورسالتنا هي توسيع الحدود الاخلاقية لاوروبا حتى نصل الى العرات» .

وخلاصة ذلك ، ان الصهيونية منذ بداياتها الاولى ، اسد من مسلمات الفكر العنصري الاوروبي لتبوير استعمارها فلسطين ، بما ينضمته ذلك من النظر الى « اليهود» باعتبارهم جنسا آسمى وأرسي من العرب ، الذين صلوا في استثمار بلادهم ، وجاء اليهود بكل ما يملكون من مواهب فريدة لكي يفودهم في مدرج الرفي والتقدم .

٢ - ولقد ترتب على هذه النظرة العنصرية المبدئية التي مهدت لعمليات الاستيطان الاستعماري لفلسطين وواكبها نشوء اتجاه سلمي ازاء العرب الفلسطينيين أهل البلاد يمثل ليس فقط في عدم الاكتراث بمصيرهم ، بل في ضرورة القضاء عليهم وطردهم خارج الحدود ، لو قاوموا عمليات الاستيطان الاستعماري .

وقد اتبع الاستعمار الاستيطاني الصهيوني هذه السياسة في كل مراحلها ، قبل انشاء الدولة وبعدها . وتشهد على ذلك المحاولات الارهابية التي خطط لها قادة اسرايل لطرد كبر عدد من الفلسطينيين خارج حدودهم عام ١٩٤٨ . وهناك شواهد ثابتة على ذلك ، وبالرغم من الازام الاسرائيلية التي تنهب الى ان القادة العرب هم الذين حثوا الفلسطينيين على الهجرة . واستمرار زحف الاستيطان الاسرائيلي ، وخصوصا بعد حرب يونيو ١٩٦٧ ، ظاهرة ملموسة ، يشهد العالم آثارها ، في شكل مصادرة اراضي الفلسطينيين ونسف منازلهم وطردهم من اراهم وتحريم العودة عليهم .

وهذه على وجه الدقة هي السياسات التي تتبعها نظم الاستعمار الاستيطاني العنصرية .

٣ - وتمثل العنصرية ايضا في السياسات الاستيطانية التي صاغها ومارسها الصهيونيون الاوائل والتي كان ابرزها اقتحام الارض والعمل والحراسة والانتاج (٩) .

أ - اقتحام الارض :

استند البرنامج الصهيوني الاستيطاني على عدة مبادئ من اهمها مبدأ اقتحام الارض . ويعني ذلك على وجه التحديد الاستيلاء على ارض فلسطين واستغلالها وانقالها من سيطرة الاغيار (غير اليهود - العرب) عليها . وحاولت القيادات الصهيونية أن تطبع المبدأ بطابع نفسي بالاضافة الى طابعه الاقتصادي الاستغلالي . فاقحام الارض وغزوها يجعل اليهودي يظهر نفسه ، ويتخلى عن سلوكه الطفيلي الذي تفرس عليه في الشتات ، نتيجة الانقطاع اجيالا طويلة عن الزراعة والصناعة وممارسة الانشطة الانتاجية المختلفة . غير انه من الاهمية بمكان ان نشير الى الطابع الارهابي لعملية اقتحام الارض الفلسطينية وغزوها . فهذه العملية تم تتم عن طريق شرائها من اصحابها ، ولا حتى عن طريق السلل والخناص ، وانما تم ذلك قسرا باستخدام الهتاننا لوسائلها الارهابية في طرد الفلسطينيين من اراضيهم ، مما جعلها تنجح في أقل من عام واحد (١٩٤٨) في انتزاع مساحة قدرها ٧٦ ٪ من مجموع مساحة فلسطين .

استطاعت أن تخلق مؤسسات ومنظمات متعددة أصبحت هي بذاتها فيما بعد نواة أجهزة الدولة بعد إعلانها عام ١٩٤٨ .
 قامت الدولة آنذاك بالمالى الى اختفاء
 عديد من الأفكار والنضال التي كانت مثارة في مرحلة الاستيطان الأولى ،
 ومن ناحية أخرى ظهور مشكلات من نوع جديد .
 وقد ارتبط انشاء الدولة في اسرائيل بثلاث عمليات
 رئيسية هي :

تدفق مهاجرين جدد ، وحايث البناء الاقتصادي والاجتماعي ،
 وتحول صفة « الرواد » (المستعمرين الأوائل) الى صفة حاكمه .
 وقد أدت هذه العمليات الى التأثير الواضح على الهوية الايديولوجية
 للمجتمع الإسرائيلي وريث المجتمع اليهودي في فلسطين . ولمل ابرز
 النتائج التي ظهرت هي انهيار ايدولوجية الريادة ، وذلك في غمار
 تحول المجتمع من مجتمع زراعي أساسا الى مجتمع صناعي ، وقد تم
 ذلك في ظل سيادة القطاع الخاص وهيمنة على مقدرات الاقتصاد
 الإسرائيلي ، وبالرغم من الدعاوى الكاذبة عن اشتراكية المجتمع
 الإسرائيلي .

وبغير أن نخوض في تفاصيل عملية الانهيار الايديولوجي التي
 صاحبت عملية انفكك المجتمع الإسرائيلي ، نسير الى
 ان التغيير الجوهرى الذي ظهر عقب انشاء الدولة ، هو احساس
 القيادات الإسرائيلية بضرورة وضع استراتيجية اجتماعية لتتنسج
 الاجيال الجديدة من الإسرائيليين ، وذلك حتى يكيفوا مع وضعهم
 الجديد . فانشاء دولة اسرائيل معناه بداية ظهور تمايز بين اليهود
 بوجه عام ، وبين الإسرائيليين مواطني هذه الدولة الجديدة ، ومدى
 اتصالها أو انفصالها عن الهوية اليهودية التقليدية ، وسناقش ذلك
 بشيء من التفصيل فيما بعد .

ولكن ما هي ملامح الاستراتيجية النفسية الاجتماعية التي وضعتها
 الصفوة الحاكمة الإسرائيلية لتحديد اتجاهات مطامع عملية التنسج
 الاجتماعية في المجتمع الإسرائيلي ؟

ان هذه الاستراتيجية في حد ذاتها أدت الى نشوء ما يطلق عليه
 عالم النفس الإسرائيلي جورج تامارين « المشكلة او المعضلة
 الإسرائيلية » (١) . ويحدد معالمها العامة بكونها تتمثل في التناقض
 الذي يسم الواقع الاجتماعي والروحي في اسرائيل ، ويعني به التعارض
 بين « التقليدية الإسرائيلية » التي تنمو الى اقامة مجتمع ديمقراطي
 تقمعي ومتنور ، تسوده المساواة - والتي تزعم الدعاية الإسرائيلية انه
 قد تحقق فعلا - وبين قوانين الشيوكراتية - المنصرية والمناخ السائد
 الذي يتسم بالتمصب ، والثقافة المتقلبة ، بالإضافة الى الاجراءات
 الشمولية القهوية التي تطبقها السلطات الإسرائيلية » .

ان هذه المشكلة تعبر في الواقع عن فشل الصهيونية في تحقيق
 برنامجها المعلن ، والذي زعم ان انشاء دولة اسرائيل ، هو التجسيد
 الواقعي للحلم الصهيوني في ان يعيش اليهود لأول مرة في تاريخهم
 في إطار طبيعي تخفى فيه اللاسامية ، ويعيش في جنباته شعب الله
 المختار الذي تهدده مختلف ضروب التهديد عبر تاريخه المتصل كما
 يزعم المؤرخون الصهيونيون . ويضع تامارين يده على جلور المشكلة ،
 فيقرر ان الصراع داخل المجتمع الإسرائيلي ، يكشف عن نفسه في
 التناقض الجذري بين انصار الاتجاهات التي تميل الى صياغة اسرائيل
 باعتبارها « غيتو » بالمعنى المادي والروحي للكلمة ، وهؤلاء الذين
 يجاهدون لاقامة مجتمع حر ومفتوح . هذا التعارض الجوهري ، بالإضافة
 الى الخلاف بين انصار التكامل مع الحضارة الإنسانية المعاصرة ، او
 الانزلال والبعد عنها ، هو جوهر « المشكلة الإسرائيلية » . وفي رأي
 تامارين ان حل هذه المشكلة لن يحدث فقط الملامح الأساسية الاجتماعية
 والحضارية للدولة ، ولكن أهم من ذلك سيكون حاسما في تحديد

مستقبلها السياسي .

وخلاصة رأي تامارين ، الذي يتفق مع الواقع الى حد كبير ، ان
 تخطيط الصفوة الحاكمة الإسرائيلية الذي يتمثل في ان تكون اسرائيل
 قلعة عسكرية حصينة بالنسبة الى جيرانها العرب فد أدى الى عزل
 اسرائيل حضاريا ، وتحولها الى « غيتو » كبير سوده انجاسات
 حضارية انزالية ورجعية ، هي في حد ذاتها المناخ الصالح لتسمو
 الافكار المنصرية ، وانشاء سياسات التمييز المنصري ضد العرب .
 ويكشف عن رجعية الاستراتيجية الاجتماعية الإسرائيلية عديد من

الحقائق والظواهر أهمها :

١ - قطع أوصال الاتصال بين الشباب الإسرائيلي والعالم ، اللهم
 الا من خلال برامج التعليم المحافظة ومصادر المعلومات المحلية ، وذلك
 خوفا من اهزاز القيم التي سبها السلطات الإسرائيلية فيهم ، لسو
 أتاحت لهم فرصة المقارنة في إطار اوسع .

وبدعى الخوف من ذوبان الإسرائيليين في مجتمعات اخرى ، او
 اعتبارات الامن التي يفرضها الموقف العسكري مع البلاد العربية ، فان
 الحصار الثقافي قد فرض بالفعل على الشباب الإسرائيلي ، وان كانت
 اعداد كبيرة قد استطاعت الافلات والسفر الى الخارج والاستقرار في
 الولايات المتحدة الاميركية .

وقد أدى هذا الحصار الثقافي الى سيادة مشاعر مرضية آزاء
 أي ندد بوجه الى الممارسة السياسية والاجتماعية في المجتمع
 الإسرائيلي ونمو مشاعر الشك آزاء الغرباء ، والتعصب والتطرف
 الايديولوجي وكذلك ظهور انفجوة الواسمة بين نصوص لقوانين
 وتطبيقها .

وقد أدت هذه الظواهر جميعا الى ان يمارس التمييز والتمييز
 المنصري في المجتمع الإسرائيلي بناء على تطبيق القوانين ذاتها ، او
 بعبارة عالم النفس الإسرائيلي جورج تامارين « أصبحت هناك أسس
 قانونية لممارسة التمييز والتمييز المنصري في هذا المجتمع » .

ومن الجدير بالإشارة ان هذا الطابع المنصري والتمصبي
 لم يقتصر أثره على السكان العرب داخل اسرائيل ، ولم يتولد بعلمانه
 فقط على لطابع الأساسي للشخصية الإسرائيلية البازغة وخصوصا
 فيما يتعلق باتجاهاتهم آزاء العرب ، ولكنه أبعد من ذلك أخذ يتسرب
 آثاره على معاملة اليهود الشرقيين ، وايضا بالنسبة لبعض طوائف
 اليهود الغربيين .

والحقيقة ان ساهر المنصرية في المجتمع الإسرائيلي متعده
 بالإضافة الى ان بعض صورها لا يمكن فهمه الا بالتخيل المنعقد لعديد
 من الأفكار والايديولوجيات والنظم الاجتماعية السائدة في المجتمع
 الإسرائيلي . لكل ذلك نختار فقط - لكي نركز البحث - موضوعية
 مناقشتها في تأثير الاتجاه المنصري في المجتمع الإسرائيلي على اتجاهات
 الإسرائيليين آزاء العرب ، والاسس القانونية للتمييز المنصري
 في المجتمع الإسرائيلي .

٢ - المنصرية واتجاهات الإسرائيليين آزاء العرب :

يمكن القول ان الطابع المنصري السائد في المجتمع الإسرائيلي
 قد أثر تأثيرا واضحا على اتجاهات الإسرائيليين تجاه العرب . وبالرغم
 من ان هذه الاتجاهات التي يمكن وصفها بانها عدوانية ، ظلت ثابتة
 لفترة طويلة من الزمن ، الا ان هناك شواهد على حدوث بعض التغيير
 وخصوصا بعد حرب يونيو ١٩٦٧ ، وازدياد فرص الاحتكاك بين عرب
 الضفة الغربية والإسرائيليين وأيضا بعد سياسة الجسور المفتوحة ،
 ولا يعني التغيير هنا ان اتجاهات الإسرائيليين آزاء العرب أصبحت أقل
 عدوانية ، ولكنه يعني في المقام الأول ان الفرصة اتسعت امامهم
 للتعامل المباشر مع مجموعات من العرب تختلف الى حد ما - نتيجة
 ظروف متعددة - عن العرب داخل اسرائيل الذين فرضت اسرائيل

الحصار المادي عليهم من خلال تحديد اقامتهم في ظل الحكم العسكري .
فهر ان اخطر الاجاهاد قاضية ، هي تلك التي تنمي ويلبور لدى
الشباب الاسرائيلي من خلال استراتيجية عنصرية لتنشئة الاجتماعية ،
تستخدم في تدعيم الافكار السلبية عن العرب المدرسة والجيش ووسائل
الاعلام .

وقد كشفت دراسة قام بها جورج تامارين في اسرائيل عن كسل
هذه الظواهر . وكان الهدف من الدراسة هو بحث آثار التعصب على
الاحكام الاخلاقية من الجوانب التالية :

ا - وجود التعصب في ايديولوجية الشباب .

ب - تأثير تدريس التوراة للشباب بطريقة غير نقدية على امكانية
تشكيل اتجاهات التعصب المختلفة (وخصوصا فكرة « الشعب
المختار » ، وسمو الشريعة الموسوية ، ودراسة افعال الابادة الجماعية
التي مارسها الابطال التوراتيون) . وقد اختار تامارين ان يركز على
اكثر صور التعصب تطرفا وهي صورة الابادة الكاملة للجماعة المعادية .
واعاد تامارين لذلك ١.٦٦ استمارة ذات محتوى واحد ، اجاب عليها
كتابة ٥٦٣ فتى و ٥.٣ فيئات من مختلف السنوات فسي مختلف
المدارس .

وقد تطرقت الاستمارة لسفر « يشوع بن نون » في الكتاب المقدس ،
الذي يدرس في المدارس الاسرائيلية في النصف الرابع حتى الثامن ،
وكان السؤال كما يلي :

« انك تعرف جيدا المقتطفات التالية من « سفر يشوع » :

« هتف الشعب وضرب بالابواق . وحين سمع الشعب صوت
البوق هتف هتافا عظيما فسقط السور في مكانه وصعد الشعب الى
المدينة كل رجل مع وجهه واخذوا المدينة . وقصوا على كل من فيها
بغير تفرقة بين رجل وامرأة وطفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير
بحد السيف » (يشوع ، ٦ ، ٢٠) .

« واخذ يشوع مقبدة في ذلك اليوم وضربها بحد السيف وحرم
ملكها هو وكل نفس بها . لم يبق شارد ، وفعل بملك مقبدة كما فعل
بملك اريحا . ثم اجتاز يشوع من مقبدة وكل اسرائيل معه الى بنه
وحارب لبنه . فنهضها الرب هي ايضا بين اسرائيل مع ملكها فضربها
بحد السيف وكل نفس بها . لم يبق بها شارد ، وفعل بملكها كما فعل
بملك اريحا » (يشوع ، ١٠ ، ٢٨ - ٣٠) .

« اجب من فضلك على السؤالين التاليين :

١ - هل تعتقد ان يشوع بن نون والاسرائيليين قد تصرفوا تصرفا
صحيحا أو غير صحيح ؟
اشرح لماذا لديك مثل هذا الرأي بالذات .

٢ - لنفترض ان الجيش الاسرائيلي احتل خلال الحرب قرية
عربية ، فهل هو حسن أو سيء أن يتصرف على هذا النحو مع سكان
هذه القرية ، كما تصرف يشوع بن نون مع شعب اريحا ؟ اشرح
لسادا » .

وقدر تامارين انه اختار هذا النص بالذات بالرغم من « ان اباد
الناس بالجملة التي قام بها يشوع بن نون ، ليست المثل الوحيد من
هذا النوع في الكتاب المقدس . ولكنه اختاره لان « سفر يشوع بن نون »
يحتل مكانا خاصا في نظام التعليم الاسرائيلي .

وقد وزعت هذه الاستمارة في مدارس تل ابيب وقرية بالقرب من
الرملة وفي مدينة شارون ومستعمرة موعتشد .

وهذه امثلة من بعض الاجابات :

كتب تلميذ من مدرسة في مدينة شارون :

« كان هدف الحرب هو الاستيلاء على البلاد من اجل الاسرائيليين ،
ولذلك فقد تصرف الاسرائيليون تصرفا حسنا باحتلالهم المدن ، وقتلهم

سكانها . وليس من المرغوب فيه ان يكون في اسرائيل عنصر غريب .
ان الناس من مختلف الاديان يمكن ان يؤثروا تاثيرا لا حاجة اليه على
الاسرائيليين » .

وكتبت فتاة من مستعمرة موعتشد :

« لقد تصرف يشوع بن نون تصرفا حسنا ، بقتله جديسح الناس
في اريحا ، ذلك لانه كان من الضروري احتلال البلاد كلها ، ولم يكن
لديه وقت لاصعته مع الاسرى » .

وكانت الاجابات من هذا النوع تشكل ما بين ٦٦ ٪ و ٩٥ ٪
حسب المدرسة والمستعمرة او المدينة .

وعلى سؤال : « هل يمكن في عصرنا تصفية جميع سكان قرية
عربية معينة ؟ » ، اجاب ٣٠ ٪ من التلاميذ بشكل قطعي : « نعم » .
ونورد فيما يلي بعض ما كتبه التلاميذ :

« اعتقد ان كل شيء قد جرى بشكل صحيح . اذا انا نريد فهد
اعدائنا وتوسيع حدودنا . ولكننا نحن ايضا قتلنا العرب ، كما فعل
يشوع بن نون والاسرائيليون » - (تلميذ في الصف السابع) .
وكتب تلميذ من الصف الثامن :

« في رأيي يجب على جيشنا في القرية العربية ان يتصرف مثل
يشوع بن نون ، لان العرب هم اعدائنا ، ولذلك فهم حتى في الاسر
سيقتلون عن امكانية ليطشوا بحراسهم » .

والحقيقة ان هذه النتائج التي تحصلت من بحث نفسي اجتماعي
ميداني تتضمن في حد ذاتها كما يقرر تامارين - بحق - ادانة كامنه
للنظام التعليمي الاسرائيلي ، الذي يعمل بتنسيق مع أجهزة التنشئة
الاجتماعية الاسرائيلية الاخرى لزرع الاتجاهات العنصرية والتعصبية
في وجدان واذهان الشباب الاسرائيلي . وقد احدثت نتائج هذا البحث
عند نشرها ضجة كبرى في اسرائيل ، لسبب بسيط هو انها كشفت
بطريقة علمية وموضوعية عن عنصرية المجمع الاسرائيلي ، وقد دفع
عالم النفس الاسرائيلي تامارين ثمن شجاعته الادبية في كشف الوجه
القيح لمجتمعهم ، ففصل من عمله كاستاذ بجامعة تل ابيب ، بعد ان
اشتهرت قضيتته المشار اليها ب « قضية تامارين » . وهكذا يمكن تقدير
الاتار المدمرة التي ادت اليها الاستراتيجية الاجتماعية العنصرية التي
تبناها الصفوة الحاكمة الاسرائيلية .

٣ - الاسس القانونية للتعصب والتمييز العنصري
في اسرائيل :

من الحقائق المعروفة في علم النفس الاجتماعي ان التعصب
كظاهرة اجتماعية يمكن ان يوجد في عديد من المجتمعات ، كنتائج لتفاعل
عمليات ونظم اجتماعية وممارسات سياسية مختلفة . غير اننا بصدد
المجتمع الاسرائيلي نجابه حالة خاصة . ذلك انه بالإضافة الى ظواهر
التعصب التي يمكن ردها الى التفاعلات الاجتماعية المعقدة بين جماعات
اجتماعية متعددة المذاهب والاصول والثقافات ، هنا « التعصب
القيح » ان صح التعبير . ونعني بذلك ان النظام القانوني الاسرائيلي
بما يتضمنه من نظريات قانونية وتشريعات ، يدعم التعصب والتمييز
العنصري داخل اسرائيل ، وهو بعد ذلك ترجمة امينة للصيرورة
باعتمارها ايديولوجية عنصرية .

ويقدر جورج تامارين في دراسة له حول هذا الموضوع ، ان خطورة
هذه النصوص القانونية ، تتمثل في الاتار التي تتركها في اذهان
الناس ، والتي تجعلهم ، في طاعتهم لهذه النصوص ، يحترمون القيم
الكامنة وراعاها ، ويعتقدون في سلامتها وصحتها ، بالرغم من انها قيم
رجمية وعنصرية .

والممارسات التمييزية في اسرائيل - بالمعنى الواسع للكلمة بما
يجعلها تتضمن كل صور التسامح - والتي لها اسس قانونية فسي

اسرائيل ، تتركز في ثلاثة ميادين :

١ - انكار بعض حقوق الانسان الاساسية بواسطة قوانين مجيزة .
٢ - خرق حرية الاعتقاد بواسطة الاكراه الديني .

٣ - تعريفات تضمن تمييزا عنصريا موجها ضد الاقلية العربية .
ويرى تمارين ان اخطر القوانين المضادة للديمقراطية والتي تنسب بطابع رجعي هو القانون الخاص بتنظيم المحاكم «الحاكمية» الصادر عام ١٩٥٣ والذي هو صوره معدلة تسريع صدر ايام الانتداب البريطاني على فلسطين . وينص هذا القانون على ان مسائل الاحوال الشخصية يحكم فيها على اساس قوانين الشريعة اليهودية .

وهذا اسانون يصبره جورج تمارين اكثر العوائق رجعية للأسباب التالية :

١ - انه يخلق موقفا عنصريا عن طريق منعه للزواج المخلط بين اليهود وغير اليهود ، وايضا بين بعض فئات اليهود وفئات يهودية اخرى ، وهو بالتالي يخالف مخالفته صريحه الفقرة ٢ من اعلان حقوق الانسان الذي أصدرته الامم المتحدة . وهذا القانون - من وجهة النظر الاجتماعية النفسية - أحد المصادر الرئيسية للتعصب ، ويؤثر أيضا في القسم المتعصب غير المتدين من الجمهور الاسرائيلي ، وذلك بتدعيم اتجاهه لرفض ازاء الاغيار .

ب - انه يخلق فئة مستقلة من القضاة ، لا تحكم وفق قوانين العولة ، وفي نفس الوقت فهو يمارس التمييز ضد المرأة التي لا تكون قاضية دينية ، وأيضا يميز بين فئتين من المحامين ، الفئة التي يسمح لها بالترافعة أمام المحاكم الدينية ، والفئة التي لا يسمح لها بذلك .

ج - يتسبب في التشكيك في صحة عقود الزواج والطلاق التي أبرمت خارج اسرائيل وفق القانون المدني وهو بالتالي يخرق القواعد المستقرة في القانون الدولي الخاص .

د - ينعم مبدأ عدم المساواة بين اليهود وغير اليهود . ذلك ان غير اليهود لا يقبلون كشهود أمام المحاكم الدينية .

هـ - يخرق حرية الاعتقاد وذلك باجبار الأشخاص غير المتدينين ان يتزوجوا (او يطلقوا) من خلال ممارسة طقوس دينية تقليدية ، واهيانا يتطلب منهم الارتداد عن عقيدتهم حتى يسمح لهم بالزواج .

و - ينكر على المحكمة العليا الاسرائيلية حقها في صحة حالات الزواج المتنوعة وفقا للقوانين الدينية .

ويرجع تمارين صعوبة تغيير هذا القانون الذي يتضمن بلانه نظرة عنصرية رجعية لكل شخص ليس يهوديا ، الى العقلية المتحجرة للجيل القديم من الصفوة السياسية الحاكمة . وهذا الجيل القديم اكتسبت بمبادئ الصهيونية ما يزال يرى ان تدعيم الدين من شأنه تدعيم الاواصر بين المواطنين اليهود الذين ينتمون الى المجتمع الاسرائيلي .

وإذا أضفنا الى ذلك ، القوانين الجائرة التي طبقت وما زالت تطبق على العرب الفلسطينيين في اسرائيل ، أدركنا كيف يكشف المجتمع الاسرائيلي من وجهة العنصري الصريح في التعامل مع العرب الذين كانوا يوما الاغلبية واهل البلاد الاصليين .

تحليل سياسي لتشكيل الشخصية الاسرائيلية العنصرية
أولا : السمات الاساسية للشخصية الاسرائيلية

ايديولوجية عنصرية هي الصهيونية ، قامت على اساس عدد من الاوهام والاساطير الزائفة كان لا بد لها حين تؤسس تجمعا بشريا من خلال عملية استثمار استيطاني ، ان تطبع هذا التجمع بطابعها ، من

طريق فرض ونشر وتدعيم استراتيجيات عنصرية وعنصرية للتنشئة الاجتماعية . وقد ادى ذلك كله الى ظهور الشخصية الاسرائيلية وهي متأثرة بالجنود العنصرية الراسخة للصهيونية .

والحقيقة انه لا يمكن لنا ان نعهم الطابع العنصري للايديولوجية الصهيونية بغير تعقب آثاره على مستوى المجتمع والشخصية معا . وإذا كنا قد عرضنا للمجتمع الاسرائيلي من زاوية تشريح استراتيجيات التنشئة الاجتماعية العنصرية التي فرضتها الصفوة الاسرائيلية على الجماهير اليهودية في اسرائيل ، فانه من الاهمية بمكان ان نحلل اخيرا عناصر ومفومات الشخصية الاسرائيلية ، التي هي نتجتها النهائية لممارسات الايديولوجية الصهيونية (١١) .

ان التحليل الدقيق لتشخصيه الجماعة في اسرائيل ، يجعلنا نقرر منذ البداية ، ان هناك هوية اسرائيلية في دور التكوين ، تختلف في سماتها - بدرجة قليلة او كبيرة - عن الهوية اليهودية السائدة في عدد من التجمعات اليهودية في العالم القريب . وينبغي ان نساؤل منذ البداية عن اندالات السياسية التي يمكن ان نطرحها للعناصر والمفومات المكونة لها ، وعن خطة الصفوة السياسية الحاكمة في الربط بين هوية اليهودية السليدية والهوية الاسرائيلية البازغة .

هذه الاسئلة الهامة لا نستطيع ان نجيب عليها الا اذا حاولنا ان نقوم بعملية تحليل سياسي للشخصية الاسرائيلية .

وواقع ان الدراسة العميقة للشخصية الاسرائيلية يمثل في حد ذاتها مطلباً اساسياً لفهم العدو الصهيوني فهما علمياً دقيقاً . غير ان تحليل تأثير مكونات هذه الشخصية على الصراع العربي الاسرائيلي من وجهة النظر السياسية والاجتماعية يعد ضرورة حيوية. ذلك ان وقوفنا عند عتبات البحث السيكولوجي الخالص ، او الدراسة الاجتماعية المحدودة ، بغير ان نسط بصرفنا الى ما يترتب على النتائج العلمية التي نتصل عليها ، من آثار اللحظة الراهنة في الصراع وتطوراتها في المستقبل ، يعد تكوصاً واضحاً عن توظيف البحث العلمي في خدمة الاهداف القومية لامتنا العربية ، في صراعها العنصري مع الدولة الصهيونية العنصرية .

المشكلات الخاصة بتشكيل الهوية الاسرائيلية :

حاول بعض الباحثين تحديد المشكلات الخاصة بتشكيل الهوية الاسرائيلية في الوقت الراهن . أولى هذه المشكلات انتقال « السمات اليهودية » التقليدية الى « الهوية الاسرائيلية البازغة » . ويرى بعض المحللين النفسيين ان هذه السمات التي يمكن استخلاصها من تحليل التاريخ اليهودي تنطق بنبرة اليهود الى انفسهم باعتبارهم كانوا دائما اقلية مضطهدة ، ومن بين هذه السمات : القلق والاحساس بالهوية ، والشك ، وعدم الثقة في غير اليهود . وقد انتقلت بعض هذه السمات - كما يرى بعض الباحثين النفسيين الاميركيين - الى المجتمع الاسرائيلي . فقد لاحظوا سيادة مشاعر الشك - الذي كان نتيجة احساسهم بتفردهم وامتيازهم من ناحية - وخضوعهم لغير اليهود من ناحية اخرى خلال موجات الاضطهاد التي جرفتهم ازماتا طويلة . غير ان الاحساس بالدونية تحول لكي يصبح احساسا بالعظمة والتفوق لدى الاسرائيلي تجاه باقي العالم . وهذا الاحساس بالتفوق يعبر عن نفسه الاسرائيلي فيما يزعمه نفسه من حقوق لها مكانة متميزة ، وتتجاوز في مداها حتى المبادئ المستقرة في القانون الدولي العام . وعمل قانون العودة الاسرائيلي الذي يمنح الجنسية الاسرائيلية فوراً لكل يهودي يعن عن رفته في الهجرة الى اسرائيل ، ابرز مثال على ذلك .

ويقرر عالم النفس اليهودي روبنشتين في ملاحظاته الشخصية عن « النفسية الاسرائيلية » ان « الاسرائيليين كآفراد وكمجتمع ، يتسمون باتجاهات شك عميق للجنود تجاه الآخرين . وهذا الشك في رايه يسود المعلومات الشخصية في اسرائيل ، ويكشف عن نفسه في

ولعل السؤال الرئيسي الذي ينبغي انارته هو : ما تأثير الهوية الاسرائيلية البازغة بعلامتها وقسماتها التي حاولنا تحديدها على تطورات الصراع العربي الاسرائيلي ، ومن ناحية اخرى ما تأثير الصراع عليها ؟ ان اهم ما ينبغي الاشارة اليه ، ان الصفوة الحاكمة الاسرائيلية تحاول - من خلال استراتيجية نفسية اجتماعية متماسكة - تشكيل الهوية الاسرائيلية البازغة ، وفق نموذج يسمح في النهاية لها بتحقيق سياستها العسكرية والاقتصادية بأكبر قدر من البذخ والرفاهية . ومن هنا يمكن القول ان السمات النفسية التي تميز جماهير الاسرائيليين كالثق وكالترس والندون ازاء العرب ، وازاء العالم غير اليهودي ، وأخيرا ازاء الهجرة والمنظمات الدولية ، ليس سمة ان تميز أيضا اعضاء الصفوة الحاكمة الاسرائيلية بنفس لطيفة التي نجدها لدى

جماهير التي سيسكل وعيها السياسي والاجتماعي وفقا لمخططات الصفوة السياسية . فمن المنطق عليه في بحوث علم النفس الاجتماعي أنه حتى لو سلمنا بان هناك طابعا قوميا يميز شعبا من الشعوب ، فمن المحتمل ألا نجد السمات النفسية الاجتماعية التي يضمنها لدى الصفوة أو العامة . وحسب اذا ما ظهرت سمات تطابع القومي لتخصيصه بالنسبة للصفوة السياسية ، فان رايهم عاليا ما تنازل بالخصائص الصلبة المتعلقة بحجم القوة التي تحت تصرفهم وبحسب الجغرافيا والتاريخ والاقتصاد .

أدوات السياسة بحاكمه أيخمان :

وتكشف عن هذه الملاحظة الهامة محاكمته أيخمان في اسرائيل ، التي تبين بشكل بارز الفجوة بين الاستراتيجية التي صاغتها الصفوة الاسرائيلية لتشكيل الهوية الاسرائيلية ، والتي تركز تركيزا شديدا على ربطها بالهوية اليهودية ، وخصوصا فيما يتعلق بالثق في غير اليهود ، وبين الواقع النفسي لدى الاسرائيليين ، الذين نتيجته لظروف متعددة - لم يعدوا يهتمون بمق الروابط بينهم وبين يهود العالم .

تقرر الباحثة اليهودية الشهيرة حنا آرندت في كتابها الذي اثار سخط الصفوة الحاكمة الاسرائيلية « ايخمان في القدس » ، ان هذه الصفوة لم يكن هدفها محاكمة أيخمان باعتباره شخصا ولكن باعتباره رمزا . ويكشف عن ذلك نصريح لبن غوربون قبل المحاكمة قرر فيه : « ليس شرذا الذي وقع في الفصم لكي يجابه محاكمته التاريخية ، ولا هو أيضا النظام النازي بمفرده ، ولكنه ايدولوجية المعادة للسامية عبر التاريخ » .

وكانت الدوافع الكامنة وراء محاكمة أيخمان لدى الصفوة الاسرائيلية متعددة . وهي كما يحصرها دايبيل في مقاله « أبعادات العدالة » الذي ينقد فيه كتاب آرندت :

- ١ - لكي يشهد العالم على التصير الذي لاغاه اليهود .
- ٢ - ولتحميل ضمير الامم ووزر الاساس بانذبح حتى نندفع للدفاع عن مصالح اسرائيل .
- ٣ - ولكي يشوب لليهود في اسرائيل نوعية الحياة التي عاشها اليهود في الشتات ، والتي اذى اليها انهم عاشوا كغافية .
- ٤ - ولكي يبرهنوا للاسرائيليين اخيرا صواب انحل الصهيوني لشكلة اليهود .

وتكشف حنا آرندت في كتابها عن ان بن غوربون صمم خطة المحاكمة لكل مراحلها قبل ان تبدأ ، وكشف عن اهدافه التي يريد ان يحققها من ورائها في سلسلة مقالات نشرها في جريدة « دافار » ومن بينها « ان جيل الاسرائيليين المعاصرين في خطر ان يغفروا روابطهم مع الشعب اليهودي ، وبالتالي مع تاريخهم ، ولذلك فمن الضروري لهم ان يدركوا ماذا حدث للشعب اليهودي » .

كل تفاعل مع العالم الخارجي . وهو يصف ثلاثة مستويات من الشك والرفض : المستوى الاول موجه ضد العرب ، والمستوى الثاني موجه ضد العالم غير اليهودي ، والمستوى الثالث موجه ضد النظم والجهزة الدولية .

ويخلص روبنشين من دراسته الى انه يمكن وصف النفسية الاسرائيلية على مستوى وجود « اسبق لجنون الاضطهاد » بأنها تتسم بالتطور والتحدد يهيم عليها ، ويسم هذا العرض المرضي جنوره من شك اليهود التمييزي في الاميار (كل من هم ليسوا يهودا) ، والذي تسرب الى التكوين النفسي للاسرائيليين المعاصرين ، الذي يوجه اساسا للعربي مما انعكس بشكل واضح على السياسات الاسرائيلية في النظرية والتطبيق .

ولعل العامل الحاسم في العلاقات بين الطبقات الاجتماعية داخل المجتمع الاسرائيلي مرتبط ارتباطا وثيقا بمشكلة الهوية . وفي هذا الصدد يفارن اباحون بين « الهوية اليهودية التقليدية » و « الهوية الاسرائيلية البازغة » . ووفقا لما يراه العالم الاميركي مارغريت مين تي كتابها « اسرائيل ومسلمات الهوية » ان العاصم سبي كان ضروريا دائما للحفاظ على الهوية اليهودية هو وجود جماعة او جماعت من غير اليهود . « فالشيء الوحيد الذي كان ضروريا لتمييز جماعه من اليهود هو وجود بنص الاميار » . وقد وجدت مارغريت مين بين ملاحظاتها في المجتمع الاسرائيلي « انشغال الاسرائيليين الشديد بحس متصل متعلق بالهوية ، وبالرسالة المنفردة لاسرائيل ، وبوضع شعب اسرائيل الذي يختلف عن أي شعب آخر » . وكل هذا يتطابق مع السمات التي اشرنا اليها في مقدمه هذا البحث ، للمذهب والايديولوجيات النصرية .

وتتفق أحدث البحوث النفسية الاجتماعية التي اجراها العالم اليهودي « هرمان » (١٢) عن الهوية الاسرائيلية عام ١٩٧١ من نتائج التي توصلت لها مارغريت مين في تخمسينات . فهو يقرر ان تقسيم العالم بين اليهود وغير اليهود ، مكون اساسي من مكونات الهوية اليهودية ، وان صورة غير اليهودي تحسب وسما مركزيا في ذهن اليهودي ، وما زال وضع الحدود بين اليهود وعالم غير اليهود له تأثير قوي غلاب في اسرائيل .

غير انه في الحديث عن الهوية الاسرائيلية البازغة ، ينبغي الالتفات الى تعدد النويات النفسية في اسرائيل ، بحسب الاجيال المختلفة التي ينتمي اليها الاسرائيليون . ولعل جيل السابرا (وهم المواليد الذين ولدوا في اسرائيل) هو الذي يركز الباحثون على محاولة استكشاف معالم بنانه النفسي المميز . ومرد ذلك الاهتمام الى الاختلاف النوعي في الخبرة الاجتماعية النفسية لليهود المهاجرين الى اسرائيل ، وهؤلاء الذين ولدوا على ارضها ولا يعرفون بلدا غيرها . هذا الجيل يتسم - من وجهة نظر عديد من الباحثين - بسمات نفسية منفردة اهمها :

- التمرکز حول اسرائيل (بانعنى الزماني والمكاني للكلمة) .
- عدم الاهتمام بالتاريخ اليهودي الحديث (حتى ما يتعلق منه بتاريخ آبائهم) .
- طموحهم يتركز حول بلوغ مستوى الامان المادي ، والحيثية على مستوى مربع من الحياة .
- احساس قوي بالانتماء .

وإذا كان اختلاف الاجيال يعكس اثره بوضوح على بناء الهوية الاسرائيلية البازغة ، فان هناك في رأي هرمان ابعادا لها دلالة هامة في قياس العوامل التي تشكل هذه الهوية في الوقت الراهن . ولعل اهم هذه الابعاد قاطبة : الاصل السلافي (يهود شرقيون ويهود غربيون) ، ودرجة الدين (يهود علمانيون ويهود متدينون) .

وهكذا يمكننا ان نرى - من خلال خطيط الصفة السياسية الاسرائيلية لمحاكمه ايضاً - كيف تعمل هذه الصفة بدياً لتشكل الشخصية الاسرائيلية بناء على نموذج عنصري محدد يتهى اساساً على الشك في غير اليهود عموماً ورفضهم ، والعداء ازاء العرب خصوصاً ، وكل ذلك انطلاقاً من المقولة العنصرية الاساسية التي يزعم ان اليهود هم شعب الله المختار ، ولذلك هم اسمى الاجناس قاطبة .

ثانياً : المكونات العنصرية في الشخصية الاسرائيلية :

اذا كنا قد اكدنا ان الصفة السياسية الاسرائيلية قد وضعت استراتيجياً للتنشئة الاجتماعية للاسرائيليين نسجت خيوطها من مسلمات الايديولوجية الصهيونية العنصرية ، فانه يبقى امامنا حتى نلتم هذا الحكم ، ان نسنهد بالبحوث النفسية الاجتماعية الميدانية الاسرائيلية ذاتها لكي نرى كيف نجحت هذه الاستراتيجية الرجعية في بلورة عدد من الاتجاهات الاساسية المصبوغة بالعنصرية بشكل صريح او ضمنى في الشخصية الاسرائيلية .

وتكشف عن ذلك بوضوح كامل سلسلة الابحاث الميدانية التي قام بها عالم النفس الاسرائيلي سيمون هيرمان ، والتي نشرها في كتابه « الاسرائيليون واليهود » . وترد أهمية هذه الدراسات الى انها اعتمدت على بحث عينات قومية ممثلة بطلبة المدارس الثانوية في اسرائيل الذين يقعون في فئة العمر ١٦ - ١٧ سنة ، وامنت في بعض جوانبها لتشمل طلبة الجامعات في السنوات الاولى . وقد قام هيرمان بدراسته الرئيسية عام ١٩٦٥ واستكملها بدراسات اخرى عام ١٩٦٨ .

وفي دراسته التكميلية التي قام بها عام ١٩٦٨ ، درس هيرمان هيئة من طلبة المدارس الثانوية في القدس وحيفا ، وطبق عليهم استمارة بحث يحتوي على عدد من الاسئلة . وقد صنف هيرمان عينته الى ثلاث فئات : متدينون ، ويعني بهم من يحرضون على اداء الشعائر الدينية بانتظام ، وتقليديون ، ويعني بهم من يحترمون التقاليد الدينية اليهودية ، فير انهم لا يواظبون على اداء الشعائر الدينية ، وغير متدينين ، ويعني بهم من لا يمارسون الشعائر الدينية .

وتكشف نوعية الاسئلة عن الاطار النظري الذي ينطلق منه هيرمان في دراسته للهوية الاسرائيلية ، وهذا الاطار يتضمن في الواقع المقولات العنصرية الاساسية الكامنة في الصهيونية ، اذ نجد امامنا ثلاثة عشر سؤالاً تتناول الموضوعات الآتية :

- الاسرائيليون باعتبارهم استمراراً للشعب اليهودي .
- دولة اسرائيل باعتبارها استمراراً للتاريخ اليهودي .
- السمات السلبية للسلمة لليهودي اثناء المذابح التي جرت لليهود في المانيا (البولوكوست) .
- الجوانب الايجابية للسلمة لليهودي اثناء المذابح التي جرت لليهود .
- التعاطف مع معاناة اليهود اثناء المذابح .
- التعاطف مع اليهود الذين عانوا من الانتداء فيهم في البلاد الاسلامية .
- امكانية تكرار المذابح لليهود .
- واجب اليهود في ان ينظروا الى انفسهم باعتبارهم من بقوا احياء من المذابح اليهودية .
- تعريف الصهيونية مجرداً .
- نظرتهم الى انفسهم باعتبارهم صهيونيين .
- مدى شعورهم بالقرب من اليهود الاميركيين المسلمين يرفون والذين لا يرغبون في الهجرة الى اسرائيل .
- امكانية القتل اتجاهات معاداة السامية .

- معاداة السامية وسمات وسلوك اليهود .
واذا حاولنا ان ننظر لنتائج هذا البحث نظرة كلية شاملة ، فاننا نستطيع ان نضع ايدينا على المكونات العنصرية الاساسية للصهيونية . ويمكن تحديد هذه المكونات في عدد من الافكار الرئيسية :

- ١ - التأكيد على استمرارية الشعب اليهودي عبر التاريخ وبفسرده .
- ٢ - التركيز على الاضطهاد الذي لاقاه اليهود في المنح مصات الغربية .
- ٣ - التركيز على الاعتداءات المزعومة التي وقعت على اليهود في البلاد الاسلامية .
- ٤ - اثاره الخوف الدائم من احتمال تكرار المذابح اليهودية .
- ٥ - تأكيد استمرارية معاداة السامية في العالم .

ان هذه الافكار الرئيسية هي التي نجحت الصفة الحاكمة الاسرائيلية في زرعها في اذهان الاسرائيليين ، مما ادى بهم الى ان تتشكل اتجاهاتهم الاساسية بشكل مرضي ، ويبدو ذلك كما ذكرنا في بداية هذا الفصل ، في الشك والرفض والعدوان ازاء العرب ، واذا العالم غير اليهودي ، واخيراً ازاء الاجهزة والمنظمات الدولية .

لقد اذت استراتيجية التنشئة الاجتماعية الاسرائيلية الى ان تصطبغ الشخصية الاسرائيلية بطابع تسلطي واضح ، كما يؤكد معالم النفس الاسرائيلي جورج تامارين ، وقد ساعد على صياغة هذه الشخصية العنصرية بتعيم القيم التي تشجع على العنف والعدوان ازاء العرب سواء بالتنشئة للفلسطينيين الذين ظلوا داخل حدود اسرائيل بصد عام ١٩٤٨ ، أو بالنسبة للبلاد العربية المحيطة باسرائيل ، وتكشف عن ذلك كله سياسة الردع التي صاغ مبادتها بن غوريون في الخمسينات ، والتي انطلقت من مسلمة عنصرية قاطمة مؤداها ان العرب لا يعرفون الا لغة القوة والعنف . ولا نحتاج الى كبير عناء ، لتكشف ان هذا الحكم ، هو نفسه الذي تردده كافة الانظمة العنصرية حين تقيم تفرقة حاسمة بين العنصر النقي المتمثل في المستعمرين ايا كان جنسهم ، وبين العنصر المنحط المتمثل في اهالي البلاد الاصليين . وهذه التفرقة العنصرية هي التي تقف مبرراً لممارسة العنف والارهاب ازاء اصحاب البلاد الاصليين . تم ذلك تاريخياً في الجزائر ، وما زال يمارس في جنوب افريقيا وفي اسرائيل التي زعمها الاستعمار في قلب العالم العربي .

خاتمة :

في ضوء بحثنا ألوجيز عن الصهيونية باعتبارها ايديولوجية عنصرية ، يمكن القول ان الطابع العنصري الذي رسم الصهيونية منذ ظهورها في القرن التاسع عشر ، قد ادى - بعد انشاء دولة اسرائيل عام ١٩٤٨ - الى ظهور مجتمع عنصري بكل ما تعنيه الكلمة من معنى . ولذلك كان ظهور كتاب العالم الاسرائيلي اشاحاك رئيس لجنة حقوق الانسان الاسرائيلية وعنوانه « عنصرية دولة اسرائيل » صدمة لكثير من الدوائر الثقافية الغربية التي خدمت طويلاً بتعاوى الاشتراكية والديمقراطية ومجتمع السلمة في اسرائيل . كما ان بحوث عالم النفس الاسرائيلي جورج تامارين والتي نشرها في كتابه « المفضلة الاسرائيلية » والتي تسببت في فصله عن عمله كاستاذ في جامعة تل ابيب ، وكلها بحوث ميدانية ، لتثبت بما لا يدع مجالاً للشك كيف اذت مسلمات الصهيونية العنصرية ، وسياساتها التطبيقية ، الى صياغة شخصية اسرائيلية تتسم بكونها عدوانية وتسلطية ومتعصبة ومنغلقة .

ومن الجدير بالاهتمام ان هذه السمات يشترك فيها الى حد كبير عديد من نظم الاستعمار الاستيطاني التي ما زالت باقية في عالمنا حتى الوقت الراهن . ومن هنا تكتسب الدراسات المقارنة لهذه النظم

(١١)

- Taylor , A.R . The Zionist Mind , Beirut , The
Institute for Palestine Studies , 1974 .

انظر : السيد يسين ، قراءة سياسية في خريطة الشخصية
الاسرائيلية ، الاهرام .

(١٢)

- Herman , S N . Israelis and Jews , New York :
Random House , 1970 .

(١٣)

- Abu - Lughod & Abu - Laban , B . (Ed) ,
Settler Regimes in Africa and the Arab world ,
The Illusion of Endurance , Illinois , The Medina
U . N . Press , 6974 .

كيف نواجه الصهيونية

تتمة المنشور على الصفحة - ٢٩

كما يرتبط البعد الايديولوجي والاستراتيجي لهذه المواجهه
بالبعد (التكتيكي) المرحلي والفرهي آندي يستوعب حاجات مسيرة
العالم التقدمية ، وظروف النضال والمخططات المعادية ، وتوفر الوسائل
اللازمة لدر هذه المخططات وتحقيق تقدم ثابت مسرى طريق تحرير
فلسطين من العنصرية الصهيونية .

٨ - على ضوء ذلك كله يتبين ان مواجهة العنصرية الصهيونية ،
تطلب عملا فكريا ونضاليا منظما يستقطب القوى الخيرة المحبة
للسلام ، المستوعبة بعمق ابعاد الايديولوجية العنصرية الصهيونية
وممارساتها للانسانية ، والتحررة من التأثيرات والنفوذ المعادية
لتحرر الامة العربية ونهضتها المعاصرة ، الساعية بلا كلل من اجل
ايجاد قاعدة نضال مشترك عربي يهودي ، تحرري ، ضد العنصرية
الصهيونية ، ومن اجل جعل ارض المحبة في فلسطين نموذجا للتعاون
والتعايش والتحاب بين الديانات واتوميات والحضارات المتواجدة
فيها ، ومقبرة للعنصرية والتعصب والحقد ، في ظل حياة ديمقراطية
واطار سياسي منسجم مع الاهداف الحضارية الانسانية للتنهضة
العربية المعاصرة ، وغير متعارض او متناقض معها .

ان دور المفكرين الانسانيين التقدميين دور كبير في تحقيق هذه
الغاية - المعجزة - ، في نظر الكثيرين اليوم . ولكن منطق التساريخ
يؤكدنا بالرغم من كل مظاهر السطحية الطارئة التي تجعلها اقرب الى
الحلم في ظل الظروف الراهنة ، التي يحاول فيها التحالف العنصري
الامبريالي الصهيوني الرجعي ، ان يثبت العكس ، وان يجعل من
احداث لبنان صورة لمستقبل الوطن العربي ، صورة التحزب والعنصرية
الطائفية .

ولكن وعي العالم ، العالم التقدمي ، وشعوب العالم اجمع
والقوى الخيرة فيه ، ان وعيهم الكاشف للمؤامرة التاريخية على الامة
العربية وعلى مستقبل نهضتها يطوق هذه المؤامرة وهو كليل بردها على
مقابها ، لانها ضد منطق العصر ، وضد بديهيات انطور التاريخي .
وليس هذا الملتقى الفكري العالمي ، الذي نأمل ان يرسي دعامة
عمل فكري دائم في الكفاح ضد العنصرية الصهيونية وفي شتى انحاء
العالم ، ليس الا دليلا حيا وعمليا على ان الصفحة الجديدة المتقابلة
لصفحة الواقع الراهن الذي صنفته العنصرية الصهيونية ، قد بدأت
تتلر العنصرية بمصيرها المحتوم ، وتفتح الطريق امام التحول الجذريه
الانسانية التي سوف تحقق السلام في هذه المنطقة الرئيسية وفي
العالم اجمع .

البياس فرح

بغداد

أهمية خاصة ، نظرا لانها جذرية تكشف البنية الاساسية لهذه النظم
من ناحية ، وتبرز مكونات العقلية الاستيطانية من ناحية اخرى (١٣) .
ان نتائج هذه الدراسات العلمية المقارنة ، يمكن ان تكون ذات قيمة
بالفة لصانعي السياسة في البلاد التي تقاوم هذه النظم الاستعمارية ،
على ضوءها يمكن رسم الاستراتيجية الثورية لمجابهتها ، مهما ظنت هذه
النظم انها قادرة على البقاء الى الابد . ومن خلال هذه الاستراتيجية
يمكن القضاء - ولو في الاجل الطويل - على هذه الاوهام الاستعمارية
من خلال العمل الفكري والنضال السياسي والصكري .

السيد يسين

مدير مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية
مؤسسة الاهرام - القاهرة

الهوامش والتعليقات

(١) سبق لنا ان قمنا بدراسة باصليية واسعة المدى لهذه
القاهرة :

انظر : السيد يسين ، د. علي الدين هلال وآخرون ، الاستعمار
الاستيطاني الصهيوني في فلسطين ، القاهرة : معهد الدراسات
والبحوث العربية ، ١٩٧٥ .

(٢) راجع مناقشة تفصيلية للموضوع في دراستنا :
الايديولوجية والتكنولوجيا ، ١ - تعريفات مبدئية ووضع المشكلة ،
مجلة الكاتب ، اغسطس ١٩٦٩ ، العدد ١٠١ ، ٧ - ٢٠ .

(٣)

- Schaff , A , La définition fonctionnelle de
L'idéologie et le probleme de « la fin du siecle de
l'idéologie » l'homme et le société , no 4 . 1967 .

(٤)

- Felman , D . , in : Joseph S . Roucek , (ed) ,
Twentieth Century Political Thought , New York :
Philosophical library : 1946 , 105 - 131

Cox , O . C . Caste , Class & Race , New York :
Monthly Review press , 1959 .

(٥) عبارة لادولف هتلر في كتاب : « كفاحي » ، مذكور في

فيلمان ، مرجع سابق ، ص ١٠٦ .

(٦) مذكور في فيلمان ، مرجع سابق ، ص ١٠٧ .

(٧)

Gobineau , D. Essai sur l'inégalité des races humaines
Paris , Librairie de Paris , (sans date)

(٨) انظر مرضا دقيقا وتحليلا نقديا لهذه النظريات

العنصرية في :

Sorokin , T.A. Contemporary Sociological Theories ,
Harper Torchbooks , 1964 , 219 - 251 .

(٩) راجع في تعريف هذه المفاهيم : موسوعة المفاهيم
والمصطلحات الصهيونية ، رؤية نقدية ، تأليف وشراف : د. عبدالوهاب
المسيري بالاشتراك مع سوسن حسين ، القاهرة ، مركز الدراسات
السياسية والاستراتيجية ، ١٩٧٥ .

(١٠)

- Tamarin , G . , The Israeli Dilemma : Essays on a
warfare State , Rotterdam University Press , 1973 .